

الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » وقال تبارك وتعالى : « والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وهكذا أمر الله تعالى بالتفكير الجري السليم والعام السامى النافع والعمل الطيب المشمر . لأنه بذلك يمتدى الإنسان إلى الله ويعرف نفسه كما أنه شاد منار العلم والحضارة والمدنية وأنتج ما أنتج من ألوان العلوم والآداب والفنون . وطأ فى الجو وصعد إلى القمر وغاص فى البحر وذلل البر لخدمته .

العصر الذهبى للعدالة الإنسانية

يحدثنا التاريخ قديمه وحديثه أن الدماء الغزيرة التى سفكت ظلما وعدوانا والجرائم والمظالم التى ارتكبت والذنابل والآثام التى اقترفت والأموال التى نهبت والأرزاق والأعتاق التى قطعت بالظلم والباطل كانت من فعل الذين لم يعرفوا الله ولم يتقوه ، ويحدثنا كذلك أن مبادئ الحق والعدل والفضائل الإنسانية لم تنتشر ولم تزدهر إلا على أيدي الذين يؤمنون بالله حقاً وينفونه فهم يحتنبون المفاسد والآثام كما يحتنبون الأمراض والأوساخ فهم رعاة الفضائل

والأخلاق والمبادئ الإنسانية وحمايتها ودعاتها وجندها المخلصون وأبنائها الصادقون ويشهد على ذلك تاريخ المسلمين الفاتحين وتاريخ الاستعمار القديم والحديث . فالمسلمون الفاتحون عاملوا الشعوب التي دخلوا بلادها بالرحمة والعدل والإخاء ولم يستعمروها ولم يتسلطوا عليها ، ويدل على ذلك ما دخل في الإسلام من شعوب وأفرايم وما انصهر في بوتقة الحروب والإسلام من أمم ودول . وذلك يرجع إلى أنهم كانوا حملة رسالة سماوية ودعاة إلى الأخوة الإنسانية في ظل الإسلام الحنيف ولم يكونوا مستعمرين مستغلين يسلبون الشعوب حرياتهم واستقلالهم وينهبون ثرواتهم وخيراتهم ويمتصرون دماءها وحيويتها . لذلك يعتبر بحق عصر المسلمين الأوائل العصر الذهبي للعدالة الإنسانية .

أما المستعمرون القدامى والمحدثون من فرس ورومان و صليبيين ومغول وأروبيين فقد استعمروا الشعوب الضعيفة واستعبدوها وقطعوا أعناقها وأرزاقها واغتصبوا أوقاتها وأموالها وسفكوا دماءها وأزهقوا أرواحها ، وذلك لأنهم كانوا مستعمرين ماديين ملحدين تدفعهم إلى ذلك شهوة الجمع والطمع وحب السيطرة والتسلط دون وازع من ضمير أو دين ، وهذه هي حال كل من لا يعرف الله ولا يتقيه ولا يرتبط به في كل زمان ومكان ، وهذه

الظاهرة الحيوانية الهمجية اللاإنسانية ما تزال بارزة ومتفشية في العصر الحاضر عصر العلم والحضارة والمدنية وعصر الأمم المتحدة التي قامت لحفظ حقوق الإنسان في الحياة الحرة الكريمة، وتتجسد في تشريد الشعب العربي الفلسطيني من وطنه ودياره فلسطين على يد الصهيونية العالمية والاستعمار الغربي .

لذلك كان من الخير للإنسان ومن مصلحة البشرية جمعاء ربط الإنسان بخالقه وربّه الله سبحانه وتعالى بالإيمان والعبادة والتقوى والعمل والسلوك .

فالذى يعرف الله ويتقيه يعرف الحق والعدل والرحمة والذى لا يعرف الله ولا يخافه لا يعرف سبيل الحق والإنصاف والإنسانية . ولا يؤمن جانبه فلا أمان ولا اطمئنان لمن لا أمان له كما يشهد بذلك واقع الحياة البشرية في كل زمان ومكان . والمدخل إلى ملكوت الله تعالى وتذكرة الدخول للإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإذا ما دخل المرء إلى ملكوت الله بالشهادتين أخذ بوسائل التقرب إلى الله وطرق التعبد له من صلاة وصيام وزكاة وحج . على أن العبادات كلها ليست غاية في حد ذاتها ولا الهدف من نشر الدين كله فالغاية القصوى من الدين كله هي بناء الإنسان المؤمن الطيب الصالح الذى لا يقوّل ولا يفعل إلا خيراً وحقاً وعدلاً ، وبناء المجتمع الإنسانى

الأكبر الأمل الذى يتعارف فيه الناس جميعاً ويتعايشون سلبياً فى ظلال الأخوة والصداقة والمحبة على صعيد الإيمان والتقوى والعدل . ويتجلى ذلك مشرقاً فى قوله تعالى : « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . وفى قوله جل شأنه : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

وفى قول الرسول محمد عليه الصلاة والسلام : « من لم تنه صلاته فلا صلاة له » وقوله صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

وقد أجمل رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم حكمة العبادات كلها فى هذا الحديث الشريف : « أتدرون من المفلس؟ قالوا : المفلس فىنا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » .

ولا غرابة فى ذلك فالله تبارك وتعالى فى غنى عن الناس فهم الفقراء إليه ، لذلك أرسل لهم الرسل والأنبياء لهدايتهم

ومصلحتهم وخيرهم في الدنيا والآخرة ولم يرسلهم لمصلحته هو
جل وعلا .

ولقد اتبع القرآن الكريم أسلوب التبشير والترغيب وأسلوب
الإنذار والترهيب لجذب الناس إلى طاعة الله واتباع شريعة السماء
تمشياً مع عقليات البشر وطبائعهم المختلفة . وفي ذلك كل الخير
والسعادة للإنسان في الدنيا والآخرة . وفي معصية ومخالفة شريعته
كل الضرر والشقاء في الدارين . فمن آمن بالله واتقاه فله ثواب
إيمانه ومن كفر به وعصاه فعليه وزر كفره وعصياناه كما قال تعالى :
« من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » . وقال أيضاً عز وجل :
« يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه
ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل » .

وهكذا لا تذكر العبادات وحدها مقياس الإيمان والمصالح
والتقوى فالمقياس الصحيح نراه في هذا الحديث الشريف : « ليس
الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل » .

وذلك يعني أن العمل الصالح هو ثمرة العبادات كلها من صلاة
وصيام وزكاة وحج . فلا معنى ولا ثواب لعبادة لا تصحبها تقوى
الله وإقبال على الخير والفضيلة وإدبار عن الشر والرذيلة .

ولم يكن يستبدل الإنسان على وجود الله ويرى يبصره وبصيرته
آيات وحدانيته وعظمته وقدرته حثه الله تعالى على التفكير والتأمل
في خلق السموات والأرض وفي نفسه فقال جل شأنه : « سنريهم
آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

فأثار انتباهه إلى مصدر خلقه وحياته وأن الله خلق جده
الأول آدم من طين وصال ثم نفخ فيه من روحه وجعله
في أحسن تقويم وفضله على كثير من مخلوقاته كما قال الله تبارك
وتعالى : « الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين .
ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه
وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » سورة
السجدة (آية ٧ و ٨ و ٩) .

ثم ذكره بأطوار خلقه بعد خاق المنبع والمصدر والأصل كي
لا ينسى الله ، فقد خلقه الله من نقطة من ماء مهين من صلب الرجل
ثم مضغة ثم علقه ثم جنبناً في رحم الأم ثم خرج من بطن أمه إلى
الوجود طفلاً مزوداً بالسمع والبصر واللسان والعقل واليدين
والرجلين والأنف والفم وسائر الأعضاء ، ثم هداه النجدين وغمره
بالنعم التي لا تعد ولا تحصى وسخر البر والبحر والجو لخدمته
ومنفعته ولم يدعه وشأنه وحيداً في الأرض يسير حائراً تائهاً بل

أنزل له الكتب السماوية والرسول والأنبياء ليهتدى إلى الله ويتبع
سبيله وليعرف أن اتباع سبيل الله خير له وأبقى في الدنيا والآخرة
من اتباع سبيل غيره . لذلك حذره من مغبة الإلحاد والشرك بالله
والبعد عن شريعته واتباع شهوات النفس الأمارة بالسوء وركوب
أهوائها والانحراف في تيار الغرائز الحيوانية ، وبين له حسنات
التقيد بالأخلاق والآداب والفضائل السماوية فنبذها يجر المرء
إلى مزاق السقوط ومهاوى الردى .

وكما ذكره بأصله ومنبع حياته وأطوار خاقه ذكره أيضاً
بمصيره ونهايته فأينما كان الإنسان وأنى ذهب فرجعه إلى الله خالقه
ليسأله عن أعماله في الدنيا ويحاسبه عليها كما قال جل وعلا : « كل
نفس ذائقة الموت ثم إينا ترجعون » ، وقال : « إلى الله مرجعكم
جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » . ولكي لا يهيم الإنسان على
وجهه في حب الدنيا ويتوه على مركب البطر والغرور شده الله
الله تعالى إليه بحبال الموت ولجه بالجام المنون فهو دائماً على
حافة الموت ومعرض للوفاة في كل وقت والموت لا يفرق بين صغير
وكبير . قال تبارك وتعالى : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا
وما تدرى نفس بأى أرض تموت » .

وقال شاعر حكيم :

يسبح المرء في محيط الأمانى والمنايا منه كحبل الوريد